East African Scholars Journal of Education, Humanities and Literature

OPEN ACCESS

Abbreviated Key Title: East African Scholars J Edu Humanit Lit
ISSN: 2617-443X (Print) & ISSN: 2617-7250 (Online)
Published By East African Scholars Publisher, Kenya
Volume-6 | Issue-11 | Nov- 2023 | DOI: 10.36349/easjehl.2023.v06i11.004

Review Article

تغليب دلالات ضمير المتكلم على المخاطب وعكسه في القرآن الكريم

Dr. Aliyu Muhammad Sani Jangebe[1] and Dr. Bello Muhammad[1]

[1] Department of Arabic, Federal University Gusau, Zamfara State, Nigeria

Article History
Received: 29.09.2023
Accepted: 02.11.2023
Published: 05.11.2023

Journal homepage:
https://www.easpublisher.com

Quick Response Code

الملخص

فإن القرآن الكريم بديع النظم عجيب التأليف في البلاغة إلى الحد الذي يتبين عجز الخلق عنه، وإن تفوق بلاغة القرآن الكريم معجزة عما يقدر عليه البشر والجن مصداقا لقوله تبارك وتعالى "لئن اجتمعت الإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا".

لذا تهدف هذه المقالة إلى محاولة كشف دلالات وأساليب القرآن الكريم في التغليب. وقد تمّ اختيار تغليب المتكلم على المخاطب وعكسه، وذلك وفقا للمحاور الآتية:

*المقدمة *مفهوم التغليب لغة واصطلاحا *أغراض التغليب في القرآن الكريم *أنواع التغليب في القرآن الكريم *تغليب المتكلم على المخاطب وعكسه *نماذج من التغليب في القرآن الكريم *الخاتمة *المراجع والمصادر

Copyright © 2023 The Author(s): This is an open-access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution **4.0 International License (CC BY-NC 4.0)** which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium for non-commercial use provided the original author and source are credited.

مفهوم التغليب لغة واصطلاحا

مفهوم التغليب لغة:

إن لهذه الكلمة أي التغليب – معان متعددة على اختلاف صيغها في المعاجم العربية. كما نجد البلاغيين اصطلاحوا للكلمة إصطلاحا نظرا لما حوته معانيها. فهي كالآتي:-

التغليب في اللغة: يعني الاستيلاء قهرا عليه، يغلبه غلبا وتغليبا ومغلبة ومغلبا. والأفصح عند أبي المثلم مغلبة حيث يقول:

*رباء مرقبة مناع مغلبة ** كاب سلهبة قطا أقران*

***Corresponding Author:** Dr. Bello Muhammad (bellomuhammad@fugusau.edu.ng)
Department of Arabic, Federal University Gusau, Zamfara State, Nigeria

وقال اللحياني:- غلّب يغلّب أي قهره بتشديد اللام أي عليه.

وقال المراز:-

*أخذت بنجد ما أخذت غلبة ** وبالفوز بي عن أشم طويل*

ورجل غلب أي يغلب سريعا. وعن الأصمعي قال: تقول العرب. أتذكر أيام الغلبة بتشديد الباء والغلبي بفتح اللام وكسره فتعني أيام الغلبة والقهر[1].

وقد جاء في محكم التنزيل حيث يقول تبارك وتعالى: "غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ"[2].

وهو من مصادر المضموم العين مثل الطلب قال القراء: وهذا يحتمل أن يكون غلبة فحذف الهاء عند الإضافة كما قال الفضل بن عباس ابن عيينة اللهبي.

*إن الخليط أجدوا البين فانجردوا ** وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا*

ويريد عدة الأمر فحذف الهاء عند الإضافة[3].

ومما يدل على هذه الكلمة من استيلاء وقهر، قول العرب تغلب فلان على بلد كذا وتغلب: أبو قبيلة مسماة بإسمه، وهو يغلب ابن وائل بن قاسط بن دعميّ من حديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن عدنان. وأما قولهم: تغلب بنت وائل، إنما يذهبون بالتأنيث إلى القبيلة، كما تقول تميم بنت مرّ، قال الوليد بن عقبة، وكان ولي صدقات بني تغلب.

*إذا ما سددت الرأس مني بمشوذ ** قفيك مني، تغلب ابنة وائل*

وقال الفرزدق:-

*ورد العدوّ عليك كل مكان[4] ** لولا فوارس تغلب ابنة وائل*

أما التغليب من غلب يغلب تغليبا غلبة ومغلبة ككرّم يكرم تكريما على وزن فعل يفعل تفعيلا بتضعيف عين الكلمة فهي تعني قهرا وعنوة. ومما يدل عليه كلمة التغليب عند اللغويين السعة والشمول كما جاء في الحديث القدسي حيث يقول تبارك وتعالى: "إن رحمتي يغلب غضبي" أي إن رحمتي وسعت غضبي". وهو إشارة إلى سعة الرحمة وشمولها للخلق.

وعلى هذا يقول ابن منظور "فرحمة الله وغضبه صفتان راجعتان إلى إرادته كالثواب والعقاب، وصفاته لا توصف بغلبة إحداهما الأخرى، وإنما هو على سبيل المجاز للمبالغة[5].

مفهوم التغليب اصطلاحا:

أما التغليب في اصطلاح علماء البلاغيين فهو إعطاء الشيء حكم غيره، أو ترجيح أحد الشيئين على الآخر. أو بعبارة أخرى: إطلاق لفظة واحدة على شيئين إجراء بتدرج تحته المختلفين مجرى المتفقين[6].

ومعنى هذا التعريف أن التغليب لا يوجد إلا في أمرين مختلفين، وكان شرطه بعد وجود الشيئين ذكر الواحد واندراج الباقي تحته وإعطاء صفة المذكور.

وقد كان في أسلوب القرآن الكريم والعرب وسننها الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ويقول علماء المعاني إن العرب يستكثرون من هذا النوع لأنه لآدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريقة لنشاطه وأكلاء باستدرار إصغائه[7] كما ذكره السكاكي حين تكلم من الإلتفات.

والتغليب فيما نرى من باب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر إذ أنه يصدر الكلام على خلافه لغرض ما.

ومنه قول القائل:

*إلهي عبدك العاص أتاك * مقرا بالذنوب وقد دعاكا*

*فإن تغفر فأنت لذاك أهل * وإن تطرد فمن يرجو سواكا*[8]

والأصل في هذا أنا أتيك فعدل عنه إلى ضمير الغائب "هو" في عبدك، وهو من باب تغليب الغائب على المتكلم نفسه للإستعطاف والخضوع. وفي مثل هذا الإنتقال من أسلوب إلى آخر نجد القرآن الكريم يغلب المتكلم على المخاطب أو المخاطب على الغائب، كما أنه يغلب العاقل على غير العاقل، والذكور على الإناث، أو الجمع على الإفراد، والإفراد على التثنية، والتثنية على الإفراد والجمع، تغلب الكثير على القلة، والمتصف بالشيئ على ما لم يتصف وغير ذلك.

ومثله قول الشاعر:

*يادار مية بالعلياء فا السند * أقوت وطال عليها سالف الأمد*

بدأ بقوله "يادار مية" ثم غلب الضمير الغائب على ضمير المخاطب وقال "أقوت" وذالك على سبيل الإلتفات والتغليب.

أهمية الإلتفات:

وقد جاء في القرآن الكريم مثل:- قوله تعالى: " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[9] عامل الفلك مما العقلاء، "جرين" والقياس وجرت بسهم، ثم إنه تبارك وتعالى جاء بضمير المخاطب في "كنتم" ثم التفت إلى ضمير الغائب "وجرين" فثبت ما يسمى بالإلتفات في علم المعاني من الخطاب إلى الغيبة على سبيل تغليب على المخاطب.

ومن التغليب وصف الشيء بما يقع فيه أو يكون منه كما كانت العرب تقول "ليل نائم" تعني بذالك ليل نائم فيه وكقول "ليل ساهر" في موضع ليل يسهر فيه. وفي محكم التنزيل " مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ"[10].

وقال تعالى: "وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا"[11].

وأن اليوم لا يكون عاصفا ولكن الريح يكون عاصفا في اليوم، كما أن النهار يكون معاشا، ولكنه وقت لطلب المعاش، إلا أنه تعالى ذكر اليوم موضع الريح لوقوعه فيه ووصف النهار بالمعاش لكونه طلب فيه على وجه التغليب.

ومن صور التغليب أيضا ذكر اثنتيت وإخراجهما مجرى الجمع، وذلك مثل قوله سبحانه وتعالى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ"[12]. والتقدير هنا "قلباكما" إذ هما اثنان زلكنه أتى بالجمع هنا تغليبا. وكذا في قوله تبارك وتعالى: " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[13]. والتقدير فاقطعوا "يديهما" ولكنه غلب الجمع على التثنية.

ومن التغليب إجراء اثنين مجرى الجمع كما قال الشعبي في جلام له في مجلس عبد الملك بن مروان "رجلان جاءوني" فقال عبد الملك لحنت يا شعبي، قال يا أمير المؤمنين لم ألحن مع قول الله عز وجل. قال تعالى: "هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ

كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ"[14]. فقال عبد الملك لله درك يا فقيه العراقيين قد شفيت وكفيت"[15].

وباب التغليب واسع يجري في كل فن، كتغليب الجمع على الواحد، والمذكر على المؤنث لكون المذكر أصلا ولكونه أخف لعرائه من علامة التأنيث، والمخاطب على الغائب والأخف على الأثقل وتغليب الفضل على المفضول وقد ثبت أن العرب تقول عمران في أبي بكر وعمر[16]. وأظن بهذا العرض عن ماهية التغليب قد اتضح مفهومه في المعاجم العربية ومفهومه في اصطلاح البلاغيين كما تقدم، وأن جميع أبواب التغليب من المجاز.

أغراض التغليب في القرآن الكريم:

وللتغليب أغراض، وهي:

- المدح والتعظيم، ومثال ذلك قوله تبارك وتعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ"[17]. وهو خطاب لآدم وحواء – ولكن المراد هنا هما وذريتهما، ولأنهما طانا أصل الإنسان جعلا كأنهما الإنس كلهم. كقوله تعالى: " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى"[18]. ويدل على ذلك قوله تعالى: " فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[19]، وما هو إلا حكم يعم الناس جميعا، فعظم الله سبحانه وتعالى آدم وحواء على حد المدح والتغليب.
- الذم التحقير ومثال ذلك عند قوله تبارك وتعالى: "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ"[20]. والمراد بالآية هم قوم موسى عليه السلام الذين عبدوا العجل وكفروا بالله سبحانه وتعالى. أما المخاطب بـ (هم) هنا اليهود الموجودونفي زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقت نزول القرآن، وعاملهم معاملة آبائهم، تحقيرا لهم وذما وتقبيحا لفعلهم هذه، لأنهم راضون بما فعل آبائهم فكأنهم هم الذين تناولوا الفعل بأيديهم على خلاف الحقيقة.
- التوبيخ والتجهيل، وذلك عند قوله تبارك وتعالى في معرض كلامه عن الذين يعبدون الأصنام، وقوله تعالى: "إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ"[21]. والضمير في سمعوا لأصنام، فعاملهم معاملة العقلاء توبيخا وتجهيلا في ارتكاب مثل هذا الإسراف وتجاوز الحد وتصوير أن هذا العمل من العاقل واجب الإنتفاء.
- تعريض وذلك عند قوله تبارك وتعالى: "وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[22]. والمراد وما لكم لا تعبدون الذي فطرني وإليه ترجعون إذ المنبه عليه قوله وإليه ترجعون ولولا التعريض لكان المناسب وإليه أرجع. وكذلك قوله: "أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"[23]. ولذلك قيل آمنت بربكم دون بربي واتبعه فاسمعون. وقال السكاكي: لا تعرف حسن موقع هذا التعريض إلا إذا نظرت إلى مقامه"[24].
- الإستعطاف والإرهاب، وذلك مثل قول: الأمير واقف بالباب. ومنه قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ"[25]. وجمع ارجعون إستعطاف لما كان فيه من الأهوال. وهذه هي أغراض التغليب في القرآن الكريم. وهي كما تقدم تعني المدح والذم والتحقير والتعريض والإستعطاف على حسب ما بلغ إليه وسعنا من البحث محاولة، ولكن هذا لا يعني أني وفيت كل أغراض التغليب في القرآن الكريم، وإني وإن لم أذكرها كلها لكني حاولت بقدر الإمكان وأسأل الله التوفيق.

أنواع التغليب في القرآن الكريم:

يكثر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لغرض بلاغي، كتوضيح المعنى، أو المبالغة في تقريره أو الإبانة عنه، أو الإشارة إليه في قليل من اللفظ، أو عرضه في صورة جذابة وهلم جر.

تغليب المتكلم على المخاطب:

من أساليب التغليب في اللغة العربية تغليب المتكلم على الغائب، وقد جاء في القرآن آيات كثيرة فيها هذا النوع من الإلتفات الذي هو نوع من التغليب وذلك مثل قوله تبارك وتعالى: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم" الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم حول سبحانه وتعالى الخطاب للكفار، وقال: "فاعلموا أنما أنزل بعلم الله" ويدل على ذلك قوله " فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون"[26].

وكان من عادتهم كذلك في الخطاب أن يبتدأ بشيء ثم يخبر عن غيره وثبت ذلك في القرآن عند قوله تبارك وتعالى: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[27]. فأخبر عن الأزواج وترك الذين، وثبت فيه التغليب، ومن الآيات التي تظهر هذه الأساليب من التغليب والإلتفات قوله تعالى: " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[28]. أي هوتعالى بقدرته الذي يحملكم من البر على الدواب وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء حتى إذا كنتم في الفلك أي حتى إذا كنتم في البحر على ظهور من السفن "وجرين بهم بريح طيبة" فيه إلتفات أي جرين بهم بريح اللينة الطربة التي تسير السفن، وحكمة ذلك زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شطرهم النعمة[29].

قال الزمخشري، إن فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة هو المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي كمنهم الإنكار والتقبيح"[30].

ويقول الإمام القرطبي: وفي هذه الآية دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرا لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى رب أرباب"[31].

وحاصل ما في الآية أنه تبارك وتعالى عامل الفلك معاملة العقلاء، وكان فيه العاقل على غير العاقل، "وجرين بهم" والقياس وجرت بهم ثم إنه تبارك وتعالى حول الخطاب إلى ضمير الغائب بعد أن كان السياق بضمير المخاطب "حتى إذا كنتم" وقال "وجرت بهم" فقد ثبت في الآية نوعان من أنواع التغليب، وقد يجتمع في لفظ واحد التغليب على الغائب وتغليب العقلاء على غيرهم كقوله تبارك وتعالى: "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير"[32].

أي خلق لكم من جنسكم ذكورا وإناسا وخلق الأنعام أيضا من أنفسكم ذكورا وإناثا يذرؤكم أي ينبتكم ويكثركم أيها الناس والأنعام في هذا التدبير والجعل، فهو خطاب للجميع، للناس المخاطبين الأنعام المذكورة بلفظ الغيبة، ففيهتغليب المخاطب على الغائب، وإلا لما صح ذكر الجميع أعني الناس والأنعام غيب، وفيه تغليب العقلا ء على غيرهم، وإلا لما صح خطاب الجميع بلفظ "كم" المختص بالعقلاء، ففي لفظ "كم" تغليبان، ولولا التغليب لكان لكان القياس أن يقال يذرؤكم وإياها هكذا قرره السكاكي والزمخشري[33] ونوزعا فيه، بأن جعل الخطاب شاملا للأنعام تكلف لا حاجة إليه، لأن الغرض إظهار القدرة وبيان الألطاف في حق الناس، فالخطاب مختص بهم، والمعنى: يكثركم أيها الناس في التدبيؤر حيث مكنكم في التوالد، والتناسل، وهيأ لكم من

مصالحكم ما تحتاجون إليه في ترتيب المعاش وتدبير التوالد، وجعلها أزواجا، وهذا أنسب لنظم الكلام وهو جعل الأنعام أنفسها أزواجا، وقوله يذرؤكم فيه أي في هذا التدبير، كأنه محل لذلك، ولم يقل به لأنه مصوغ إظهار الإقدار مع الوحدانية وأسقط السببية وأثبت في "الظرفية"[34].

ومن الآيات التي اشتملت على هذا النوع من التغليب أعني تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب، قوله تباك وتعالى: "أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"[35].

قال الزمخشري، إذا سئل فكيف فكيف يكون علماء جهلاء؟ إنهم وصفوا بالبصيرة في الآية التي قبل هذه، وأجاب بقوله: أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفهة والمجانة التي كانوا عليها، وقال إذا قيل: تجهلون صفة لقوم والموصوف لفظة لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرأ بالياء دون التاء؟ قال: فالجواب إذا جمعت الغيبة والمخاطبة غلبت المخاطبة لأنها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة"[36].

والعرب تقول في أساليب كلامها، أنا وزيد فعلنا وأنت وزيد تفعلان، ومثله قوله تبارك وتعالى "أنتم" على جانب "قوم" كما تقدم في الآية والقياس أن يجيء، لأنه وصف القوم، والقوم اسم الغيبة ولكن حسن آخر الخطاب وصفا "لقوم" لوقوعه خبرا عن ضمير المخاطبين كما قال الإمام السيوطي[37]. والمفهوم وصفهم بجهل مستمر لا مخصوص بحال الخطاب ولذلك لم يقل "جاهلون" إيذانا بأنهم يتحددون عند كل مصيبة لطلب آيات جهلهم.

قال أبو البركات بن الأنباري، لو قيل: إنما قال "تجهلون" بالتاء لأن "قوم" هو "أنتم" في المعنى فذلك قال "تجهلون" حملا على المعنى لكان حسنا"[38].

ومن آيات التغليب كذلك قوله: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[39]. غلب فيه جانب "أنت" على جانب "من" فإسناد الفعل، وكان تقديره: فاستقيموا فغلب الخطاب على الغيبة، لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل، وتقديره عند الزمخشري، فاستقم كما أمرت، وليستقم كذلك من تاب معك[40].

ومنها قال تعالى: "قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا"[41]. فإعادة الضمير بلفظ الخطاب وإن كان "من تبعك" يقتضي الغيبة، تغليبا للمخاطب وجعل الغائب تبعا له، كما كان تبعا في المعصية وفي العقود، فحسن أن يجعل تبعا له في اللفظ وهو من محاسن ارتباط اللفظ بالمعنى[42].

ومنها قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[43]. فإن الخطاب "لعلكم" متعلق بقوله "خلقكم" لا بقوله "اعبدوا" حتى يختص بالناس المخاطبين إذ لا معنى لقوله اعبدوا لعلكم تتقون.

ومنها قال تعالى: "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"[44]. فيمن قرأ بالتاء، ويجوز أن يكون النراد بما تعملون الخلق كلهم، والمخاطب النبي صلى الله عليه وسلم وكل سامع أبدا فيكون تغليبا، لا يجوز أن يعتبر خطاب من سواه بدونه من غير اعتبار التغليب لامتناع أن يخاطب في كلام واحد اثنان أو أكثر من غير عطف، أو تثنية أو جمع[45].

والتغليب في هذا النوع يأتي على صور مختلفة منها ما يلي:

1) من المتكلم إلى الخطاب – ووجه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عنايته تخصيص بالمواجهة كقوله تبارك وتعالى: "وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[46]. والأصل، "وإليه أرجع" فالتفك إلى الخطاب تغليبا.

2) من المتكلم إلى الغيبة، ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غاب، وأنه ليس في كلامه ممن يتولون ويتوجه ويبدي في الغيبة خلافا ما يبديه في الخضور كقوله تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا"[47]. والأصل فيه لنغفر لك فغلب جانب الغيبة.

3) من الخطاب إلى المتكلم، كقوله تعالى: "قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى"[48].

4) من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[49]. والأصل فيه "وجرت بكم" ونكتة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم، التعجيب من كفرهم وفعلهم إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة، فيرى الدمنهوري أن الإلتفات هو الإنتقاض من بعض الأساليب إلى بعض لإستجلاب الخطاب، وقال من خلاف مقتضي الظاهر الإلتفات وهو عند الجمهور التعبير عنه بغيره منها ولا يشترط التعبير عنه بالغير على مذهب الشكاكي فهو عنده أعم منه عند الجمهور، فقول الخليفة أمير المؤمنين يأمرك بكذا إلتفات على مذهبه لأنه منقول عن أنا لا على مذهب الجمهور لعدم تقجمة خلافه، فأقسمه عند الدمنهوري ستة حاصلة من ضرب اثنين في ثلاثة لأن كل قسم من الثلاثة ينقل إلى قسميه:

1) الأول من التكلم إلى الخطاب، كقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[50]. والأصل إليه أرجع.

2) من الخطاب إلى التكلم، كقول شاعرهم:

صحابك قلب في الحسان طروب ** بعيد الشباب عصر حان مشيب

يكلفني ليلى وقد شط وليلها ** وعادت عواد بيننا وخطوب

والشاهد في بك ويكلفني بالياء والأصل بالكاف.

3) من الخطاب إلى الغيبة، نحو، قال تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[51]. والأصل وجرت بكم.

4) من الغيبة إلى التكلم، نحو "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ"[52].

وقد اتضح به التقسيمات أن التغليب أعم والإلتفات فرع منه وهو أخص كما تقدم البيان على ذلك، والله الموفق للصواب.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد تمت هذه المقالة، وقد حاول الباحث فيها إبراز المعنى اللغوي والإصطلاحي لكلمة التغليب، ثم تطرق لما جاء في القرآن الكريم من أسلوب المتكلم على المخاطب والمخاطب على المتكلم. وأرجوا من الله العظيم أن ينفع به النفع العميم، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن العربي أبوبكر محمد بن عبد الله – أحكام القرآن – بتحقيق علي محمد بجاوري – مطبعة دار الفكر العربي – القاهرة بغير سنة الطبع.
- ابن منظور – لسان العرب – مطبعة البيروت لبنان – الطبعة الخامسة بغير سنة.
- ابن عاشور محمد الطاهر – تفسير التحرير والتنوير – مطبعة الدار التونيسية تونس – سنة 1982م.
- أبو زهرة محمد – المعجزة الكبرى للقرآن – دار الفكر – القاهرة.
- أبو لويس المعلوف – المنجد في الأعلام – مطبعة دار المشرق بيروت – الطبعة الخامسة عشر – 1980م.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (382-370) – تهذيب اللغة بتحقيق عبد العظيم محمود – مراجعة محمد علي النجار – دار المصرية للتأليف والترجمة – الطبعة السادسة بغير سنة.
- لآدم عبد الله الإلوري – الدين النصيحة – أهداف المركز العربي ومفهوم دعوة – مطبعة الثقافة الإسلامية أجيجي نيجيريا – الطبعة الثالثة – سنة 1978م.
- الباقلاني أبوبكر بن محمد بن الطيب – إعجاز القرآن بتحقيق السيد أحمد صقر – طبعة الثالثة – دار المعارف بمصر.
- الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل – فقه اللغة وسر العربية بتحقيق ومراجعة د/فأئز محمد و د/أميل يعقوب – دار الكتب العربية بيروت – طبعة الثالثة، سنة 1416هـ/1996م.
- الجرجاني عبد القاهر الإمام – أسرار البلاغة في علم البيان شرح تعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي – طبعة الثالثة – عام 1399هـ/1979م – مكتبة القاهرة.
- دلائل الإعجاز – مطبعة مكتبة القاهرة – سنة 1400هـ / 1977م.
- الجرجاني عبد القاهر إمام – أسرار البلاغة في علم البيان تعليق أستاذ محمد عبد العزيز النجد – مكتبة ومطبعة محمد علي صحيح وأولاده – بميدان الأزهر – سنة 1400هـ /1977م.
- الزركشي بدر الدين محمد عبد الله – البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة الثالثة – سنة 1980م.
- الزركشي أبو القاسم جار الله محمد عمر – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – مطبعة دار العربية بيروت.
- الزرقاني محمد عبد العظيم – مناهل العرفان في علوم القرآن – مطبعة دار الفكر – بغير سنة.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر – شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بغير سنة.
- الشريف الرضى – تلخيص البيان – مطبعة المصرية القاهرة – بغير سنة – الطبعة الثالثة.
- شلبي أحمد الدكتور –كيف تكتب بحثا أو رسالة – مطبعة الحلبي القاهرة – بغير سنة.
- شوقى ضيف الدكور – البلاغة تطور وتاريخ مطبعة دار العلوم القاهرة – بغير سنة.

الهوامش:

[1] فيروز آبادي – القاموس المحيط – المجلد الأول دار المشرق – بيروت لبنان، ص162

[2] سورة الروم – الآية 2-3

[3] ابن منظور الإفريقي – لسان العرب – المجلد الأول – دار صادر – بيروت لبنان، ص 651

[4] الطاهر أحمد الزاوي – ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة – دار الفكر بلا تاريخ – مجلد الثالث ص840

[5] ابن منظور – المرجع السابق – المجلد الأول – ص

[6] الزركشي – بر الدين محمد بن عبد الله – البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – بدون مطبعة – 1980م ج3 ص2

[7] السكاكي – ياقوت بن يوسف بن أبي بكر محمد بن علي – مفتاح العلوم – دار العلوم – ص95

[8] السيطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر – شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان – دار الفكر – بلا تاريخ – ص68

[9] سورة يونس الآية 22

[10] سورة إبراهيم الآية 18

[11] سورة النبإ الآية 13

[12] سورة التحريم الآية 4

[13] سورة المائدة الآية 37

[14] سورة الحج الآية 19

[15] الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل – فقه اللغة وأسرار العربية – دار الكتب العربية بيروت لبنان – 1416هـ/1996م

[16] الزمخشري أبو القاسم جار الله محمد بن عمر – بلاغة القرآن الكريم في تفسير الزمخشري – بلا تاريخ ومطبعة – ص42

[17] سورة البقرة الآية 36

[18] سورة طه الآية 123

[19] سورة البقرة الآية 38

[20] سورة البقرة الآية 92

[21] سورة فاطر الآية 14

[22] سورة يس الآية 22

[23] سورة يس الآية23-24

[24] السكامي – مفتاح العلوم ص 118

[25] سورة المؤمنوم الآية99

[26] سورة المائدة

[27] سورة البقرة الآية 234

[28] سورة يونس الآية 22

[29] محمد علي الصابوني- صفوة التفاسير – ج1، ص540 وما وراءها.

[30] الزمخشري

[31] لطبري، أبو جعفر محمد بن جرير – جامع البيان عن تأويل القرآن – مصطفى الباني الحلبي وأولاده مصر – 1388هـ/1968م، ج1 ص325

[32] سورة الشورى الآية 11

[33] السيوطي – الإتقان في علوم القرآن – ج3 ص289

[34] الزمخشري – البرهان في علوم القرآن – ج3 ص308

[35] سورة النمل الآية 55

[36] الزمخشري – الكشاف - ج3 ص153

[37] السيوطي - الإتقان في علوم القرآن – ج3 ص153

[38] الزركشي - البرهان في علوم القرآن – ج3 ص303

[39] سورة الهود الآية 112

[40] الزمخشري – الكشاف – ج2 ص328. أنظر أيضا صفوة التفاسير ج2 ص104

[41] سورة الإسراء الآية 63

[42] الزركشي – المرجع السابق، ج2 ص304

[43] الزرقاني محمد عبد العظيم – مناهل العرفان في علوم القرآن – مطبعة دار الفكر – ج2 ص321

[44] سورة البقرة 21

[45] سورة الهود الآية 123

[46] الزركشي – المرجع السابق – ج3 ص304

[47] سورة يس الآية 22

[48] سورة الفتح الآية 1-3

[49] سورة طه الآية 72-73

[50] سورة يونس الآية 22

[51] سورة يونس الآية 22

[52] سورة فاطر الآية 9